تكدير المعروف

قال ابن المقفَّع[1]: "إذا كانت لك عند أحد صنيعةٌ أو كان لك عليه طَوْلٌ، فالتمِسْ إحياءَ ذلك بإماتتِه وتعظيمَه بالتصغيرِ له"[2].

•••

الغريب:

طَوْل: فضل ومعروف.

•••

البيان:

هناك نوع من أنواع الذكاء يمكن أن نسميه (ذكاء العطاء) أو (ذكاء المعروف)، وهو نوعٌ من حسن التعامل وجودة التصرف عند البذل والعطاء وإسداء المعروف للناس يعظِّم أثرَه ويخلِّد ذكرَه ويحفظه من المكدِّرات والشوائب، ومن غفل عن هذا النوع من الذكاء يتكدَّر معروفه وربما انقلب إحسانه إلى إساءة واستحق بدل المدح ذمًّا!

ومن أجلِّ أركان ذكاء المعروف ألا يقع المعروف من باذله موقع الامتنان والاستطالة، ولا يعظِّمَ عند الناس ما قدَّمه ويكبِّر ما بذله؛ لأنه إذا صنع ذلك أحرقَت نارُ الامتنان سنابلَ العطاء، وإذا عظَّم الباذلُ ما بذلَه وأخذ يتكلم بمعروفه ويتشدَّق بعطيته لم يكن المبذول في أعين الناس عظيماً ولو بلغ ما بلغ، بل ربما ظن الناس بالباذل البخل والشح لأنه لم يتعوَّد إسداء المعروف وبذل الإحسان، فهو يستحضر عطاياه القليلة أبداً ويضج أسماع الناس بها دائما.

وهنا تظهر وصية ابن المقفع: (**إذا كانت لك عند أحد صنيعةٌ أو كان لك عليه طَوْلٌ، فالتمِسْ إحياءَ ذلك بإماتتِه وتعظيمَه بالتصغيرِ له**)، وهذا تعبيرٌ بديع؛ لأنه جعل السكوتَ عن المعروفِ كلاماً به، وعدَّ التصغيرَ للصنيعة تعظيماً لها، وهي في أعين الناس كما قال ابن المقفع، وكأنما أخذه من مثل العرب الشهير: (أحيوا المعروفَ بإماتته)!

---

(١) هو عبد الله بن المقفَّع، أحد المشهورين بالكتابة والبلاغة والبراعة، كان فارسيًّا مجوسيًّا فأسلم. سُئِلَ: من أدَّبك؟ فقال: **(نفسي، كنتُ إذا رأيتُ من غيري حسنًا أتيتُه، وإذا رأيت قبيحا أبيتُه)**. قيل في ترجمته: كان ابن المقفَّع علمُه أكثر من عقله! وكان يتَّهم بالزندقة! وهو الذي عرَّب كتاب كليلة ودِمنة من الفارسية، يقال: إن ابن المقفع عاش ستًّا وثلاثين سنة فحسب. والمقفَّع: بفتح الفاء على الصحيح، قُتِلَ نحو سنة ١٤٥ هـ..

(٢) الأدب الكبير (١٠٨).

ومن تأمل آيات الإنفاق في سورة البقرة وتكرُّر النهي عن المنِّ والأذى في ثلاث آياتٍ متتالياتٍ صراحةً أيقن أن هذا المعنى الجليل من أعظم أصول الإحسان والإنفاق وبذل المعروف.

وقد رويَ أن رجلاً اشتدت به الحاجة فكتب حاجته في رقعةٍ ثم تسلل إلى مجلس عبد الله بن جعفر وجعل الرقعة تحت وسادته واستحيى من أن يلقاه بحاجته كفاحا، فلما قدم عبد الله بن جعفر وقلب الوسادة رأى الرقعة تحتها، فقرأها وردها في موضعها وجعل مكانها كيساً فيه خمسمئة دينار!

فجاء الرجل إلى عبد الله بن جعفر فقال عبد الله: قلبت النمرقة، فخذ ما تحتها. فأخذ الرجل الكيس ثم خرج وهو ينشد:

زادَ معروفَك عندي عِظَماً ** أنَّه عندك ميسورٌ حَقيرْ
تتناساه كأن لم تأتِهِ ** وهْو عند الناسِ مشهورٌ كبيرْ!

وقد أحسن أبو الطيب المتنبي لما أثنى على قوم فقال:

تحسَبُ مِن فقدِك اعتدادَهمُ ** أنَّهُم أنعموا وما علموا!

وتناهى في الإحسان لما قال في مدح علي بن منصور الحاجب:

كرَماً.. فلو حدَّثتَهُ عن نفسِهِ ** بعظيمِ ما صنعَتْ.. لظنَّك كاذبا!

لأن أبا الطيب جعل الممدوح هنا لاعتياده البذل والعطاء لا يخطر بباله أنه قدم شيئاً من المعروف؛ فإن العطاء والبذل والكرم صار له سجية، فإذا أخبره مخبِرٌ بصنائعه العظيمة وفعاله الكريمة ظنه كاذباً لأنه لا يشهد من نفسه إلا اتباع سجيتها والعمل بعادتها، فيتساءل: أين الصنائع العظيمة في ذلك؟!

ومهما تفاوت الناس في (ذكاء المعروف) واختلفت سجاياهم في الكرم وتعددت طبائعهم في البذل فإنهم يتفقون على أن المعروف الذي يتحدَّث به صاحبُه إنما هو معروفٌ مكدَّر!

كلمةٌ عابرة

قال معاوية رضي الله عنه[1]: " إن لم تكن إلا كلمةً يشتفي بها مُشتَفٍ جعلتُها تحت قدَمي ودَبْر أُذُني"[2].

•••

الغريب:

الدَبْر –بفتح الدال وسكون الباء–: الخلف. **والدُّبُر –بضمتين–**: الجارحةُ نقيضةُ القُبُل، ثم استعيرت لأواخر الأمور ونهاياتها.

وقوله (دَبْر أذني): كنايةٌ عن التصامم والإغضاء عن الشيء وترك الالتفات إليه.

•••

البيان:

يشير إمام الحلماء معاوية رضي الله عنه في هذه العبارة إلى مبدأٍ من مبادئ الحلم والحكمة في التعامل مع الكلمات العابرة المسيئة، وهو عدم الالتفات إليها إذا لم تعدُ أن تكون كلمةً مرسلةً لا يحسب صاحبها لها حسابا.

فكثيرٌ من ضعاف العقول وأصحاب السفاهة لم يعتادوا أن يلجموا ألسنتهم بلجام الأدب وصار ديدنهم تعيير الناس ولمزهم وشتيمتهم والإساءة إليهم والانتقاص منهم، وبعضُ هؤلاء تجد عنده اختلالات نفسيةً وأحقاداً مجتمعةً ومشاعر مضطربةً أمسى ينفث سمومها ويخرج نتنها بلا حساب.

فيقول معاوية رضي الله عنه: **(إن لم تكن إلا كلمةً يشتفي بها مُشتَفٍ جعلتُها تحت قدَمي ودَبْر أُذُني)**، فإذا لم يعدُ الأمر أن يكون كلمةً عابرةً أخرجها من يتشفَّى بها ليشعر بمسكِّنٍ باردٍ يسري في أطرافه إثر مفعولها فلا ضير إذن! ومثل هؤلاء لا ينبغي للعاقل الحصيف أن يعبأ بكلامهم ولا يلتفت إليهم، وليدع اللئام يتقيَّؤون ما في جوفهم فإنهم أهون من أن يريقوا شيئاً من ماء كرامته!

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب القرشي الأموي، من أعلام الصحابة وكبارهم، أسلم عام الفتح، وكان من القادة والولاة المشهورين، وهو الذي تولى الملك بعد الخلفاء الراشدين، قال ابن تيمية: (واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، وكان ملكه ملكاً ورحمة). وكان مشهوراً بالذكاء والفصاحة والحلم لا يكاد ينازعه أحد في واحدة من هذه، وضربت العربُ به المثل في الحلم فقالت: (أحلم من معاوية). وعلى تأخر إسلامه وانشغاله بالفتوحات والولاية فقد كان من علماء الصحابة، قال ابن عباس: (ليس أحدٌ منا أعلم من معاوية). ت: ٦٠هـ.

(٢) الكامل، للمبرد (٥٧/١)، والتذكرة الحمدونية (١٢٦/٢).